التأويلية ومعنى المعنى في آراء أبي بكر الرازي في التفسير الكبير، وتقاطعاتها مع الدراسات الحديثة.

د/ طارق ثابت
جامعة باتنة

ملخص:

سيتناول هذا البحث، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)؛ للإمام أبي بكر الرازي؛ الذي يعد أحد أهم العلماء المسلمين الذين نبغوا في الكثير من العلوم والمعارف كالطب والفلك والكيمياء والأدب واللغة والتفسير والفقه وغيرها، سيتناول تقاطع بعض ما جاء في هذا التفسير مع النظريات والآراء الحديثة، من خلال التطرق إلى قضية التأويل، ومعنى المعنى في الدراسات الحديثة وعند أحد روادها خصوصا (بول ريكور) وأهم التقاطعات بينهما، حيث سيتضح جليا أن الإمام الرازي تحدث بشكل أو بآخر عن قضية التأويل، وتعدد المعنى؛ وهي قضية نقدية أدبية حديثة والأكثر من ذلك كما سوف نذكر في بحثنا أنه طبقها في تفسيره الكبير مفاتيح الغيب، وقد أمكننا أن نستخرج العديد من التقاطعات بينه وبين النظريات الحديثة، وحسب هذا البحث أن يكون إضافة أخرى للتأكيد على رفعة تراثنا وغناه.

Résumé:

Cette étude concerne les efforts d'Al Imam Abū Bakr al-Rāzi. Il est l'un des chercheurs qui ont laissé un tracé net dans la distinction de nos ancêtres et leur avance et intelligence à travers les différentes publications qui ont publié dans plusieurs domaines de connaissance et de sciences comme la médecine, l'astronomie, la chimie, la littérature, la langue, « Al Tafsir » et le droit canon « Fiqh » et autres. Et si il est connu chez les occidentaux comme un médecin habile et excellent , il n'était pas connu comme une personne ayant des avis et des théories linguistiques et littéraires peut être a cause de la forte prédominance de sa profession comme médecin dans sa vie. Et dans le but de la participation dans la présentation d'El Imam Abū Bakr al-Rāzi, j'ai choisi d'entamer une côte très intéressante qui pourrait être utile pour la réalisation de ce but, qui concerne son Tafşīr utile : « Miftah al

Ghaībe » et la corrélation de certains chapitres avec les théories et les avis modernes.

أولا: مقدمة منهجية:

في تراثنا وفي كتب التراث خاصة كنوز معرفية جمّة، حوت العديد من المسائل العلمية والفكرية والنقدية، التي تدل على مقدرة أجدادنا وبراعتهم، وعلى سبقهم لعصورهم التي عاشوا فيها في كثير من القضايا؛ وهذا بشهادة علماء الغرب ذاتهم. فعلمائنا أمثال: (عبد القاهر الجرجاني)، و(أبي نصر الفارابي) و(أبي علي ابن سينا)، و(القاضي عبد الجبار المعتزلي)، و(نجم الدين الكاتبي القزويني)، و(أبي يعقوب السكّاكي)، و(سيف الدين الآمدي)، و(شهاب الدين القرافي)، و(فخر الدين الرازي)، و(أبي إسحاق الشاطبي)، و(الإستراباذي)، و(ابن الحاجب)، و(ابن يعقوب المغربي)، و(سعد الدين التفتازاني)، وغيرهم قد أثْروا المكتبة الإنسانية في جوانب كثيرة وثبت سبقهم علماء الغرب في الكثير من المسائل النقدية والأدبية الحديثة.

والإمام أبو بكر الرازي أحد هؤلاء الذين تركوا أثرا واضحا في تميز أجدادنا وسبقهم ونبوغهم؛ من خلال عديد المؤلفات التي ألفها في شتى حقول المعرفة والعلوم كالطب والفلك والكيمياء والأدب واللغة والتفسير والفقه وغيرها وإن كان عُرف عند الغرب بكونه طبيبا بارعا وفذا، فإنه لم يعرف كصاحب أراء ونظريات لغوية وأدبية، ربما لطغيان هذا الجانب الطبي من حياته عليه كثيرا.

وقصد المساهمة في التعريف بالإمام الرازي وتراثه، اخترت أن أتناول جانبا مهما ربما يفيد في تحقيق هذا الغرض ؛ ألا وهو تناول تفسيره (مفاتيح الغيب) وتقاطع بعض ما جاء فيه مع النظريات والآراء الحديثة، من خلال التطرق إلى قضية معنى المعنى في الدراسات الحديثة وعند أحد روادها خصوصا (بول ريكور) وأهم التقاطعات بينهما.

والرازي[1] هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري الطبرستاني، ابن خطيب الري، المشهور بفخر الدين الرازي، ولد في شهر رمضان من عام (544 هـ) في مدينة الري وإليها نسبته بالرازي، كان فريد عصره ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماما في التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، أخذ العلم عن والده ضياء الدين وعن الكمال السمعاني والمجد الجيلي وغيرهم من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم، والى جانب شهرته العلمية فقد اشتهر بالوعظ حتى قيل انه كان يعظ باللسان العربي واللسان الأعجمي، وكان يلحقه

الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء فيُبكي سامعوه كثيراً من شدة وقع مواعظه في قلوبهم وسحرها في أفئدتهم.

ورغم أن الحقبة التي ولد فيها الفخر الرازي كانت قلقة سياسياً، إلا أنها شهدت نشاطاً علمياً كبير؛ ففي القرن السادس الهجري كانت البلاد الفارسية تعيش حركة علمية متطورة، حيث تنوعت العلوم، وكثرت التصانيف في شتى الفنون. ولعل أهم تراث إسلامي ظهر وفرة وجودة كان في ذلك العصر؛ فقد ازدهرت العلوم الرياضية، والطبيعية، والفلسفية والكلامية، وغيرها من العلوم التي اتصل بها الرازي وكوّن شخصيته الثقافية؛ من خلال الاحتكاك بها، ولقد انعكست هذه الحركة العلمية على تفكير الفخر الرازي ومنهجه، وكانت واضحة في نتاجه العلمي الذي اتسم بالموسوعية والتنوع المعرفي.

ترك الرازي مسقط رأسه، وقام بجولة في بلاد ما وراء النهر، فذهب إلى بخارى وسمرقند وغزنة وبلاد الهند. ويبدو أنه لم يستقر في هذه المناطق نتيجة المناظرات التي كان يعقدها مع علمائها، وما يترتب عليها من آثار تحول دون استقراره على الصعيد الاجتماعي.

وقد بدأ الرازي بعد رحلته هذه بالاتصال بالسلاطين والحكام، فقد اتصل بالسلطان بهاء الدّين بسام ثم ذهب إلى خاله غياث الدّين، وبعد ذلك اتصل بسلطان غزنة، ثمّ بالسلطان الكبير خوارزم شاه، ونال منه أسمى المراتب وأقام بهراة وتملك بها ملكاً وأولد أولادا، وصفه ابن العبري بقوله: "كان يركب وحوله السيوف المجذبة وله المماليك الكثيرة والمرتبة العالية والمنزلة الرفيعة عند السلاطين الخوارزمشاهية. وسارت مصنفاته في الأقطار واشتغل بها الفقهاء"[2].

خاض الرازي في المرحلة الأخيرة من حياته صراعاً فكرياً محتدماً مع الكرامية وهم أتباع محمد بن كرام السجستاني، وهم الذين يبالغون في إثبات الصفات إلى حد التشبيه، وقد عدهم الأشعري، وابن حزم من المرجئة لقولهم: الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وقد توفي الإمام فخر الدين الرازي بهراة في يوم الاثنين أول شوال من سنة ست وستمائة للهجرة، وقد قيل انه مات مسموماً وأن الفِرَق التي كان يناظرها قد دست له من سقاه السم فهلك.

أما تراث الرازي[3]؛ فهو يُعد من علماء الإسلام القلة ذوي الإنتاج العلمي الضخم، فلقد ترك عدداً كبيراً من المؤلفات، والرسائل في حقول المعرفة المختلفة، مثل الفقه والتفسير والفلسفة والكلام والفلك والطب والكيمياء والتاريخ والبيان واللغة، وغيرها من العلوم والاختصاصات؛ مما يشير إلى سعة دائرة معلوماته وموسوعية ثقافته إضافة إلى قدرته العالية على الكتابة والتأليف، غير

أن كتبه لم تصل إلينا كلها، فلقد فُقد عدد منها ضمن ما فقد من كتب التراث العربي الإسلامي بفعل عوامل عديدة؛ وقد اختلف المهتمون بالتراجم وجمع التراث الإسلامي، وكذلك الذين درسوا حياة الرازي في تعداد كتبه؛ فقد جعلها البعض ستة وسبعين كتابا في حين بلغ بها البعض إلى مائتي كتاب، ومنشأ الاختلاف في عدد كتب ومصنفات الرازي يعود إلى عدم التثبت من صحة نسبة بعض الكتب إليه واختلاف الباحثين في الاعتماد على المصادر التراثية في هذا المجال، وتعذر مراجعتهم للكثير من المخطوطات المنسوبة للرازي للتأكد من صحة نسبتها، يضاف إلى ذلك أن بعض الكتب التي كتبها الرازي كان يحمل اسمين؛ وهذا ما فهمه قسم من المهتمين بالتراث على أنه كتاب واحد، فيما فهمه القسم الآخر على انه اسمان لكتابين مستقلين، كما هو الحال في كتابه الذي فسر فيه سورة الفاتحة؛ فقد جاء في بعض القوائم كاسم واحد هو: (تفسير سورة الفاتحة أو مفاتيح العلوم)،.بينما أدرجته قوائم أخرى كعنوانين لكتابين هما: (تفسير سورة الفاتحة)، و(مفاتيح العلوم)، وكذلك كتابه حول الأسماء الحسنى، فقد ورد في بعض القوائم على النحو التالي: (شرح أسماء الله الحسنى، أو لوامع البيانات في شرح أسماء الله الحسنى والصفات)؛ في حين اعتبرت قوائم أخرى (لوامع البيانات) كتاباً مستقلاً، والأكثر من ذلك أن هناك قائمة لكتب الرازي أدرجت (مفاتيح الغيب) كعنوان مستقل إضافة إلى (التفسير الكبير) في حين أن المعنون واحد.

ثانيا: كتاب مفاتيح الغيب ومنهج الرازي في التفسير[4]:

الكتاب يقع في 32 جزءا وفهرس، وهو أكبر تفسير بالرأي والمعقول، ويذكر فيه المؤلف مناسبة السورة مع غيرها، ويذكر المناسبات بين الآيات، ويستطرد في العلوم الكونية، ويتوسع بها، كما يذكر المسائل الأصولية والنحوية والبلاغية والاستنباطات العقلية، ويبين الرازي في تفسيره معاني القرآن الكريم، وإشاراته، كما أن فيه "أبحاث مطولة في شتى العلوم الإسلامية، كعلم الكلام، وأقوال الفلاسفة والحكماء، ويذكر فيه مذاهب الفقهاء وأدلتهم في آيات الأحكام، وينتصر لمذهب أهل السنة في العقيدة، ويرد على المعتزلة، وأقوال الفرق الضالة، ويفند مذاهبهم كما يرد على الفلاسفة"[5]، ويعتبر هذا الكتاب من أجّل كتب التفسير وأعظمها، وأوسعها، وأغزرها مادة، لكن الرازي لم يكمله، فجاء شهاب الدين الخوبي الدمشقي (639هـ) وأكمل قسما منه، ثم جاء بعده نجم الدين القمولي (727هـ) فأتمه إلى الأخير، دون أن يتميز الأصل من التكملة[6].

أ– منهج الرازي: يُعد (مفاتيح الغيب) من أطول التفاسير القديمة التي وصلتنا، بل هو من أطول كتب التفسير القديمة والحديثة، وأكثرها تفصيلاً وعرضاً للآراء، ومناقشة للمعتقدات والمذاهب المختلفة، ومنهجية الفخر الرازي في التفسير لا نجد لها نظيراً في التفاسير الأخرى. فـ" لقد اعتمد التفصيل إلى أقصى قدر ممكن في كل آية من آيات القرآن الكريم. حيث جزأ الآية الواحدة إلى أصغر وحدة كلامية يمكن أن تستقل بالمعنى، وتناولها في عدد من المسائل، ثم يجعل من المسألة الواحدة مباحث لفروع تفصيلية، يُعبر عنها تارة (بالأقوال)، وأخرى (بالوجوه)، وثالثة (بالأمور) وغير ذلك من التقسيمات، وكل قسم من هذه التقسيمات قابل للتفريع والتفصيل، فمثلاً في تفسير الآية الثانية من سورة البقرة وهي قوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين). يأخذ قطعة من الآية وهي قوله تعالى: (ذلك الكتاب) ويحدد تفسيرها في أربع مسائل مستقلة؛ في المسألة الأولى يطرح سؤالاً بقوله: (لقائل أن يقول المشار إليه هاهنا حاضر و«ذلك» اسم مبهم يشار به إلى البعيد. والجواب عنه من وجهين: الأول: لا نسلم أن المشار إليه حاضر. وبيانه من وجوه: احدها ما قاله الأصم...) وهكذا يستمر الفخر الرازي في بيان الوجوه فيصل بها إلى السبعة, وبعد أن ينتهي منها يعود إلى الشق الثاني من المسألة الأولى لمناقشته وبيانه. أما في المسألة الثانية يقول: (لقائل أن يقول: لِم ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؟ الجواب: لا نسلم أن المشار إليه مؤنث لأن المؤنث إما المسمى أو الاسم، والأول باطل، لأن المسمى هو ذلك البعض من القرآن، وهو ليس بمؤنث. وأما الاسم فهو «ألم» وهو ليس بمؤنث، نعم ذلك المسمى له اسم آخر وهو السورة وهو مؤنث، لكن المذكور السابق هو الاسم الذي ليس بمؤنث وهو «ألم»، لا الذي هو مؤنث وهو السورة). وفي المسألة الثالثة يستعرض أسماء القرآن الكريم، حيث يقول: (اعلم أن أسماء القرآن كثيرة احدها: الكتاب وهو مصدر كالقيام والصيام. وقيل: فعال بمعنى مفعول كاللباس بمعنى الملبوس. واتفقوا على أن المراد من الكتاب القرآن قال تعالى: (كتاب أنزلناه إليك) والكتاب جاء في القرآن على وجوه: احدها: الفرض (كتب عليكم القصاص)[7] (كتب عليكم الصيام)[8]، (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)[9]، وثانيها الحجة والبرهان (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين)[10]؛ أي برهانكم، وثالثها: الأجل (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم)[11]، أي أجل، ورابعها: بمعنى مكاتبة السيد عبده: (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم)[12]....).

وهكذا بعد أن يستوعب الفخر الرازي الاسم الأول من أسماء القرآن يأتي على بحث الاسم الثاني من أسماء القرآن، حتى يصل إلى بحث اثنين وثلاثين اسماً.

وفي المسألة الرابعة يتناول الفخر الرازي اتصال قوله تعالى: (الم) بقوله: (ذلك الكتاب) وذلك من وجوه عديدة.

وبعد أن يستكمل الرازي تفسير القطعة الأولى من الآية وهي قوله تعالى: (ذلك الكتاب)، ينتقل إلى القطعة الثانية التي تليها وهي قوله تعالى: (لا ريب فيه)، حيث يفسرها في مسألتين فيها أسئلة وأجوبة.، وبعدها ينتقل إلى القطعة الثالثة من الآية نفسها وهي قوله تعالى: (هدىً للمتقين) حيث يفسرها في أربع مسائل، يبحث في المسألة الأولى معنى الهدى، فيطرح حوله ثلاثة آراء، الرأي الأول له، والثاني لصاحب الكشاف، والثالث لمفسرين آخرين.

وناقش الرازي الرأيين الآخرين مستدلاً على خطئهما وصحة رأيه. لكنه عاد وذكر احتجاج صاحب الكشاف بأمور ثلاث ذكرها متسلسلة؛ ثم بين هو اعتراضه على آراء صاحب الكشاف بثلاث أجوبة، ليؤكد في النهاية صحة رأيه.

وفي المسألة الثانية بحث الفخر الرازي معنى المتقين، واستعرض عدة آراء في جوابه على سؤال: هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى؟ أما المسألة الثالثة فقد ناقش فيها مرة ثانية موضوع الهدى عبر الإجابة على أربعة أسئلة، أما في المسألة الرابعة فتحدث عن إعراب: (هدىً للمتقين). وبهذا يكون قد انتهى من تفسير الآية الثانية من سورة البقرة.

ويعتبر تفسير هذه الآية كمتوسط لتفسير الآيات القرآنية في منهجية الفخر الرازي"[13]، على أنه من الضروري الإشارة إلى الاستغراق في آيات كثيرة بالبحث والتفصيل والتفريع لدرجة يشعر القارئ بالارتباك أمام التقسيمات الكثيرة، ويجد صعوبة كبيرة في حصر المسائل والأقوال والوجوه والأسئلة والأجوبة ثم الرد على كل سؤل بنفس التقسيم والتفريع.

ب– المنحى العام للتفسير: يرى بعض الباحثين[14] أن الإمام فخر الدين الرازي اعتمد في تفسيره على منهجين: الأول؛ ما فسر فيه سورة الفاتحة وهي منهجية مطولة جداً تتناول الآية من كافة جوانبها، والثاني المنهجية التي فسر بها القرآن الكريم ابتداءً من سورة البقرة وحتى آخر آية من سورة الناس، ويرى هذا البعض من الباحثين أن الرازي لو اعتمد منهجيته في تفسير سورة الفاتحة، في تفسير القرآن الكريم لاحتاج إلى مئات المجلدات، وبرأي الدكتور(حسن بركة الشامي) أن" الفخر الرازي اعتمد منهجية واحدة في تفسيره، وإذا كان قد استغرق في الحديث عن سورة الفاتحة فلأن لها خصوصيتها المتميزة وفضائلها الكثيرة، ولا نجد مفسراً من المفسرين إلا وقد أطال الحديث عنها بشكل يميزها عن بقية سور القرآن، وقد لجأ الفخر الرازي إلى الإحاطة بمقدمات يراها ضرورية في

التمهيد لسورة الفاتحة مثل (الاستعاذة) وما يرتبط بها من مباحث مع أنها خارجة عن تفسير سورة الفاتحة، غير أن بعض الباحثين اعتبر ذلك جزءاً من تفسيره لهذه السورة المباركة.[15]"، ومن أجل إيضاح هذا الموضوع نقدم هذه الفهرسة لمنهج الرازي في تفسيره لسورة الفاتحة[16]:

الفصل الأول: في التنبيه على علوم هذه السورة على سبيل الإجمال.

الفصل الثاني: في تقرير مشرع آخر يدل على انه يمكن استنباط المسائل الكثيرة من الألفاظ القليلة.

الفصل الثالث: في تقرير مشرع آخر لتصحيح ما ذكرناه من استنباط المسائل الكثيرة من هذه السورة.

الكتاب الأول العلوم المستنبطة من قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم):

القسم الأول: في المباحث الأدبية المتعلقة بهذه الكلمة، وفيه أبواب:

الباب الأول: في المباحث المتعلقة بالكلمة وما يجري مجراها.

الباب الثاني: في المباحث المستنبطة من الصوت والحروف وأحكامها.

الباب الثالث: في المباحث المتعلقة بالاسم والفعل والحرف.

الباب الرابع: في تقسيمات الاسم إلى أنواعه.

الباب الخامس: في أحكام أسماء الأجناس والأسماء المشتقة.

الباب السادس: في تقسيم الاسم إلى المعرب والمبني وذكر الأحكام المفرعة على هذين القسمين.

الباب السابع: في إعراب الفعل.

القسم الثاني: يشتمل على تفسير (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) في المباحث النقلية والعقلية، وفيه أبواب:

الباب الأول: في المسائل الفقهية المستنبطة من الاستعاذة.

الباب الثاني: في المباحث العقلية المستنبطة من الاستعاذة.

الباب الثالث: في اللطائف المستنبطة من الاستعاذة.

الباب الرابع: في المسائل الملتحقة بالاستعاذة.

الكتاب الثاني مباحث بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول: في مسائل جارية مجرى المقدمات.

الباب الثاني: فيما يتعلق بهذه الكلمة من القراءة والكتاب.

الباب الثالث: في مباحث الاسم.

الباب الرابع: في البحث عن الأسماء الدالة على الصفات الحقيقية.

الباب الخامس: في الأسماء الدالة على الصفات الإضافية.

الباب السادس: في الأسماء الواقعة بحسب الصفات السلبية.

الباب السابع: في الأسماء الدالة على الصفات الحقيقية مع الإضافية، وفيه فصول:

الفصل الأول: في الأسماء الحاصلة بسبب القدرة.

الفصل الثاني: في الأسماء الحاصلة بسبب العلم.

الفصل الثالث: في الأسماء الحاصلة بسبب صفة الكلام.

الفصل الرابع: في الإرادة وما يقرب منها.

الفصل الخامس: في السمع والبصر.

الفصل السادس: في الصفات الإضافية مع السلبية.

الفصل السابع: في الأسماء الدالة على الذات والصفات الحقيقية والإضافية والسلبية.

الفصل الثامن: في الأسماء التي اختلف العقلاء فيها إنها هل هي من أسماء الذات أو من أسماء الصفات.

الفصل التاسع: في الأسماء الحاصلة لله تعالى من باب الأسماء المضمرة.

الباب الثامن: في بقية المباحث عن أسماء الله تعالى.

الباب التاسع: في المباحث المتعلقة بقولنا: (الله).

الباب العاشر: في البحث المتعلق بقولنا: (الرحمن الرحيم).

الباب الحادي عشر: في بعض النكت المستخرجة من قولنا: (بسم الله الرحمن الرحيم).

الكلام في سورة الفاتحة وفيه أبواب:

الباب الأول: في أسماء سورة الفاتحة.

الباب الثاني: في فضائل هذه السورة.

الباب الثالث: في الأسرار العقلية المستنبطة من هذه السورة.

الباب الرابع: في المسائل الفقهية المستنبطة من هذه السورة.

الباب الخامس: في تفسير سورة الفاتحة، وفيه فصول:

الفصل الأول: في تفسير قوله تعالى: (الحمد لله).

الفصل الثاني: في تفسير قوله: (رب العالمين).

الفصل الثالث: في تفسير قوله:(الرحمن الرحيم).

الفصل الرابع: في تفسير قوله: (مالك يوم الدين).

الفصل الخامس: في تفسير قوله: (إياك نعبد).

الفصل السادس: في قوله: (وإياك نستعين).

الفصل السابع: في قوله: (اهدنا الصراط المستقيم).

الفصل الثامن: في قوله: (صراط الذين أنعمت عليهم).

الفصل التاسع: في قوله: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

القسم الثاني في تفسير مجموع السورة وفيه فصول:

الفصل الأول: في الأسرار العقلية المستنبطة من هذه السورة.

الفصل الثاني: في مداخل الشيطان.

الفصل الثالث: في تقرير أن سورة الفاتحة جامعة لكل ما يحتاجه الإنسان في معرفة المبدأ والوسط والمعاد.

الفصل الرابع: حول قول الرسول (ص) حكاية عن الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي...».

الفصل الخامس: في أن الصلاة معراج العارفين.

الفصل السادس: في الكبرياء والعظمة.

الفصل السابع: في لطائف قوله: الحمد لله. وفوائد الأسماء الخمس المذكورة في هذه السورة.

الفصل الثامن: في السبب المقتضي لاشتمال (بسم الله الرحمن الرحيم) على الأسماء الثلاثة.

الفصل التاسع: في سبب اشتمال الفاتحة على الأسماء الخمسة.

الفصل العاشر: في هذه السورة كلمتان مضافتان إلى اسم الله واسمان مضافان إلى غير الله.

هذه هي الأبحاث التي تناولها الفخر الرازي في معرض تفسيره لسورة الفاتحة يلاحظ عليها أنها ضمت العديد من الأبحاث التي تمثل مقدمة لتفسير القرآن الكريم، كما ضمت الكثير من الأبحاث التي تتناول خصائص هذه السورة وفضائلها، والصلاة اليومية، وغيرها من الأبحاث المترتبة على خصوصية سورة الفاتحة من بين سورة القرآن الكريم، وقد شغلت هذه الأبحاث القسم الأكبر من الجزء الأول المخصص لسورة الفاتحة؛ فالفخر الرازي وجد في سورة الفاتحة" مجالات مفتوحة لعرض أبحاثه وفرتها لها خصوصية السورة. وهو منهج عام اتبعه في تفسيره، حيث كان يطيل البحث في الآيات التي يجد

فيها مجالاً للتوسع وكتابة الأبحاث والفصول والآراء، ومن ذلك بحثه الطويل حول الملائكة وعظمتهم وكثرتهم ونقل فيه الكثير من الآراء والمناقشات، وكذلك حديثه المطول والمفصل عن العلم في تفسيره لقوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها...)، حيث تطرق إلى موضوعات عديدة بعيدة عن جو الآية وتفسيرها. ومثل ذلك كثير الحصول في تفسير الرازي، بل انه مما يميز تفسيره عن غيره من كتب التفسير."[17]، والذي يؤكد عليه الدكتور (حسن بركة الشامي) أن "الإمام فخر الدين الرازي اعتمد منهجية واحدة في تفسيره القرآن الكريم، لكن خصوصية سورة الفاتحة هي التي جعلته يطيل فيها أكثر من غيرها. كما أن اختلاف موضوع الآيات القرآنية هو الذي كان يحدد أبحاث التفسير طولاً وقصراً. والذي نراه أن الفخر الرازي كان يحاول كخط عام في منهجه تحريك كل الأبعاد الممكنة في جو الآية القرآنية"[18].

ثالثا: تقاطع الرازي مع المناهج الحديثة:

أ- الرازي وتعدد المعنى: اعتمد الإمام فخر الدين الرازي على مجموعة من العلماء وأصحاب الرأي؛ نقل عنهم آراءهم اللغوية والنحوية، ومعاني المفردات القرآنية، وأسباب النزول، وغير ذلك من الآراء والعقائد وقد استفاد الرازي من كتب التفسير التي قبله، خصوصًا كتب المعتزلة؛ ومن أعلام المعتزلة الذين نقل عنهم[19]: قطرب (ت: 206 ه) وأبو بكر الأصم، والجبائي (ت: 303ه، والكعبي (ت: 319ه)، وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (ت: 322 ه)، والزمخشري (ت: 538 ه)، وقد جعل العقل حجة عنده؛ فتراه يقدمه على النقل بدعوى التعارض بينهما، بل تراه يستخدمه في مجالات لا يُقبلُ فيها نقد العقل، كبعض الأحاديث الصحيحة الواردة في حق بعض الأنبياء، فهو يفندها من جهة العقل فحسب .

وقد استفاد في الوجوه البلاغية من تفسير الزمخشري على وجه الخصوص، لذا تراه يأتي بسطر من المعلومات عند الزمخشري فيجعله في مسائل يبسط فيها البحث، و" مما ظهر في كتابه غير الأمور العقلية والفلسفية وبحوث العلوم التجريبية ما يأتي :

1 . الاعتناء بعلم المناسبات .

2 . الاستنباط في جميع المجالات.

3 . ذكر الملح واللطائف التفسيرية.

4 . العناية بجانب البلاغة القرآنية.

والكتاب يُعدُّ من مراجع التفسير الكبيرة، وفيه فوائد كثيرة، ومسائل علمية نادرة وقد أنجز الباحث المصري إيهاب النجمي رسالة علمية بعنوان (تعدد المعنى في النص القرآني، دراسة دلالية في تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي) قال في مقدمتها :" لا يخفى على ذي لُبّ ما يحويه مفاتيح الغيب من كنوز ثمينة وعيون معرفية جمة، توزعت في شتى مجالات المعرفة والثقافة، فكان حقيقا بما قيل فيه من أنه تفسير حوى كل شيء بين دفتيه، وكان على رأس تلك المعارف والعلوم علوم اللغة والأدب بمختلف مباحثها وقضاياها ومستوياتها؛ ابتداءً بالمستوى الصوتي ومرورا بقضايا البنية والاشتقاق, والمباحث التركيبية المختلفة، ولما كانت المهمة الأولى لتفسير أي نص أو لحاشيته هي الكشف عن معنى ذلك النص وتوضيح ما غمُض منه, وفتْح ما استُغلِق على أفهام متلقيه؛ نقول لما كانت تلك هي المهمة الأولى للتفاسير، فقد كان للدلالة بقضاياها المتعددة وإشكالاتها المتنوعة منزلتها, وخصوصيتها في (مفاتيح الغيب(، وكان من أهم تلك القضايا الدلالية وأبرزها في(مفاتيح الغيب) قضية (تعدد المعنى)؛ إذ ظهرت بكثرة في تفسير الإمام الرازي للعديد من الآيات القرآنية وتحليله لها".

وقد حاول الباحث في أطروحته هذه تأصيل ظاهرة (تعدد المعنى) من خلال مسارين اثنين، كان أولهما تأصيل الظاهرة في مقولات عدد من القدماء والمحدثين وتطبيقاتهم على بعض النصوص، وكان ثانيهما تأصيلاً لها من خلال عقد مقارنة بين تفسير الرازي باعتباره منتهجا منهج التفسير بالرأي، وتفسير الدر المنثور للإمام السيوطي باعتباره معتمدا على منهج التفسير بالمأثور، وهدفت تلك المقارنة إلى إثبات أن تعدد المعنى قائم في المنهجين على السواء، ولم يكن أحدهما يبتدع القول به من دون المنهج الآخر"[20].

ب– تعدد المعنى في الدراسات الحديثة: يعتبر (بول ريكور) ، الفيلسوف الفرنسي، علامة في حقل الهرمنطيقا؛ فقد كرس حياته لفهم أبعاد ظاهرة التأويلية، وقام بإنتاج ما لا يحصى من الكتب والمقالات والمحاضرات حول موضوع التأويل الذي أصبح محورا من محاور الأدب والفلسفة الحديثة بعد أن أحياه الفلاسفة الألمان في القرنين الأخيرين, وقد ترجمت أعمال ريكور إلى لغات مختلفة، كما خصص لفكره العديد من الرسائل الجامعية والبحوث الأكاديمية في أوروبا والولايات المتحدة، ويتصاعد الاهتمام بـ(ريكور)لأن مسألة التأويل لم تعد تقتصر على النصوص فقط؛ ففي الأدب والدين والتاريخ والعلوم الاجتماعية هاجس تأويلي أيضاً.

وتتميز مسيرة (ريكور) الفكرية بـ"أنه طوع دراسة الهرمنطيقا لمقتضيات واكتشافات عصره دون تبعية منه لهذه المدارس. فقد استوعب إنجازات الفينومينولوجية والبنيوية والفرويدية وغيرها واستفاد منها لإدراك أعمق لآليات التأويل"، ولكنه لم ينقد لهذه الاتجاهات انقيادا متطرفا بل كشف عن أوجه قصورها في إضاءة حقل الهرمنطيقا إضاءة كاملة، وقد تكلم عن إشكالية ثنائية المعنى وكيفية توظيف السيمانطيقا (علم دلالة اللغة) بفرعيها السيمانطيقا المعجمية السيمانطيقا البنيوية لتوصيف علمي دقيق لظاهرة ثنائية المعنى والرمزية، و"لكنه يبقى على طول الخط واعيا ومذكرا بمحدودية السيمانطيقا في حل كل إشكاليات تعدد الدلالة والغموض، وذلك لأن هناك جانبا يتجاوز البعد الألسني ألا وهو تعددية الدلالة في الذات الإنسانية والكينونة والوجود، فالغموض كما يوضح ريكور ليس ظاهرة خارقة أو منحرفة بل هو نابع من طبيعة النفس ومن طبيعة اللغة"[21].

يقول بول ريكور في مقال له بعنوان (إشكالية ثنائية المعنى بوصفها إشكالية هرمنطيقية وبوصفها إشكالية سيمانطيقية)،"إن إشكالية المعنى المتعدد لم تعد اليوم إشكالية التفسير بمعناه الديني أو حتى بمعناه الدنيوي فقط وإنما هي في ذاتها إشكالية ذات طابع يمس فروعا علمية متعددة . وأريد أولا أن أتعامل مع الإشكالية على مستوى استراتيجي واحد، مستوى متجانس، وهو النص، انطلاقا من فينومينولوجية الدين على منهج (فان دير ليو Van der Leeuw) وإلى حد ما على منهج (إلياد Eliade)، ما الذي ينتج تنوع التأويلات ؟ إنه انعكاس لتقنيات مختلفة؛ فحل رموز النفس أمر، وتفسير الكتاب المقدس أمر آخر، والفرق هنا يكمن في القواعد الداخلية للتأويل وهو فرق معرفي" ويضيف قائلا: "إن إمكانية التأويلات المختلفة والمتضاربة – على مستوى التقنية والرؤية – ترتبط بشرط جوهري وهو ، في تصوري، سمة مشتركة للمستوى الاستراتيجي لهذه التأويلات ، وهذا الشرط الأساسي هو الذي يوقفنا هنا: وهو أن الرمزية وسط للتعبير عن واقع غير لغوي"، ويضيف أيضا"من خلال ازدواجية الكلام تتم ثنائية المعنى هنا بالكشف عبر فائض الدلالة عن حركة وجودية أي عن حالة معينة من الوجود الإنساني المرتبط بالحدث، هذا الحدث الذي في حرفيته يقع في عالم تاريخي مرصود، فثنائية المعنى هنا كاشفة عن وضع في الكينونة"[22].

ج– بين الرازي وبول ريكور: إن كلام (بول ريكور) عن قضية تعدد المعنى قد أشار إليها الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب بل وطبق بعض مناهجها في تفسيره؛ فإذا كان تعدد المعنى عند ريكور يتم من خلال ما أسماه بـ "السيمانطيقا المعجمية"[23]؛ وهي البحث عن المعنى من خلال دلالاته النحوية والمعجمية والصوتية, فإن هذا هو بالضبط ما فعله الرازي في تفسيره قبل أكثر من عشرة

قرون من الآن؛ حيث حاول إيجاد تفسير لأي القرآن من خلال تتبع دلالات ألفاظه وجمله وتراكيبه بل وحتى حروفه من خلال علوم اللغة والأدب بمختلف مباحثها وقضاياها ومستوياتها, ابتداءً بالمستوى الصوتي ومرورا بقضايا البنية والاشتقاق, والمباحث التركيبية المختلفة. ولما كانت المهمة الأولى لتفسير أي نص أو لحاشيته هي الكشف عن معنى ذلك النص وتوضيح ما غمُض منه, وفتْح ما استُغلِق على أفهام متلقيه؛ فقد كان للدلالة بقضاياها المتعددة وإشكالاتها المتنوعة منزلتها وخصوصيتها في(مفاتيح الغيب) والرازي كما أشرنا في منهجه في التفسير قد اعتمد التفصيل إلى أقصى قدر ممكن في كل آية من آيات القرآن الكريم؛ حيث "جزأ الآية الواحدة إلى أصغر وحدة كلامية يمكن أن تستقل بالمعنى، وتناولها في عدد من المسائل، ثم يجعل من المسألة الواحدة مباحث لفروع تفصيلية، يُعبر عنها تارة (بالأقوال) وأخرى (بالوجوه) وثالثة (بالأمور) وغير ذلك من التقسيمات. وكل قسم من هذه التقسيمات قابل للتفريع والتفصيل"[24]، وهذا عين ما أشار إليه بول ريكور حين تكلم عن قضية تعدد المعنى ومراعاة تقسيم الكلام إلى أجزاء, ومن ثم دراسته وفق دلالاته المعجمية والصوتية والنحوية وغيرها, وقد قدمنا لذلك مثالا حين تكلمنا عن منهجه في تفسير سورة الفاتحة وأتينا بفهرسة تفسيره لها كمثال على اشتغاله بقضية تعدد المعنى وتقسيماته للآية الواحدة إلى عدة أقسام، والقسم منها إلى عدة أجزاء والجزء منها إلى عدة مفاصل جزئية؛ ليصل أحيانا إلى تفسير وشرح معنى الحرف الواحد من الآية.

خاتمة:

يتضح جليا أن الإمام الرازي تحدث بشكل أو بآخر عن قضية تعدد المعنى؛ وهي قضية نقدية أدبية حديثة والأكثر من ذلك كما ذكرنا أنه طبقها في تفسيره الكبير –مفاتيح الغيب–, وعلى كل تحتاج هذه القضية على بحث أشمل وأوسع من طرف الباحثين المتخصصين المتعمقين في قراءة وفهم التراث وفي استيعاب المناهج الحديثة بشكل جيد.

إن الإمام الرازي وكغيره من علماء المسلمين كانوا أصحاب ثقافات مختلفة موسوعية فلا عجب أن نرى فيما كتبوه تقاطعا واسعا مع المناهج والنظريات الأدبية و النقدية المعاصرة, وكل هذا يحتاج منّا لبذل جهود أكثر لإماطة اللثام عن هذه الجوانب المضيئة من هذا التراث الغني، والزاخر، وحتى نستأصل من ذواتنا عقيدة النقص التي لازمتنا من كل ما يأتي من تراثنا.

ويبقى البحث في هذا الموضوع غزيرا متشعبا, وخاصة فيما كتبه الإمام أبي بكر الرازي العالم الموسوعي، ويمكننا أن نستخرج العديد من التقاطعات بينه وبين النظريات الحديثة، كما فعل الكثير من الباحثين[25]، وحسب هذا البحث أن يكون إضافة أخرى للتأكيد على رفعة تراثنا وغناه.

الإحالات:

(1) أنظر موقع الإمام الرازي: www.al-razi.net

(2) أنظر موقع الإمام الرازي: www.al-razi.net

(3) منهج الرازي في التفسير والتفكير, حسين بركة الشامي, مجلة الفكر الجديد, العدد14.13، السنة الرابعة, حزيران 1996 .

(4) أنظر موقع المشكاة وفيه التفسير كله: http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=6&book=1523

(5) مساعد الطيار في موقع أهل التفسير: http://www. tafsir.org/vb/showthreas

(6) هذه المسألة من المسائل التي شغلت الدارسين, وهل أتم الرازي تفسيره أم لا؛ ولزيادة بيان ينظر البحث القيم لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى بن علي المعلمي في موقع ملتقى أهل الحديث: www.ahlalhdeeth.com

(7) البقرة: 178.

(8) البقرة: 182.

(9) النساء: 103.

(10) الصافات: 157.

(11) الحجر: 4.

(12) النور: 33.

(13) منهج الرازي في التفسير والتفكير، حسين بركة الشامي, مجلة الفكر الجديد، العدد14.13 السنة الرابعة, حزيران 1996.

(14) كالدكتور حسين بركة الشامي, والأستاذ محسن عبد الحميد في كتابه الرازي مفسرا, دار الحرية, بغداد, ط1,1988, والدكتور عارف مفضي المسعر في كتابه المنقول والمعقول في التفسير الكبير لفخر الدين الرازي, مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ,الرياض،ط1، 1426هـ.

(15) منهج الرازي في التفسير والتفكير, حسين بركة الشامي, مجلة الفكر الجديد, العدد14،13 السنة الرابعة, حزيران 1996.

(16) الإمام الرازي، مفتاح الغيب، ج1، دار الفكر للباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983، ص13إلى ص293.

(17) منهج الرازي في التفسير والتفكير, حسين بركة الشام, مجلة الفكر الجديد, العدد14.13 السنة الرابعة, حزيران 1996.

(18) المرجع السابق.

(19) ينظر: tafsir.org/vb/showthreas.dhp?th/eadid=243q

(20) الدكتور مساعد الطيار في موقع أهل التفسير: www. tafsir.org/vb/showthreas.dhp?th/eadid=243.

(21) فريال جبوري غزول في موقع المفكرة الفلسفية, مقال حول بول ريكور, ترجمة وتقديم: http://www.enashir.com/blogs/tarik/9053.

(22) بول ريكور, إشكالية ثنائية المعنى بوصفها إشكالية هرمنطيقية وبوصفها إشكالية سيمانطيقية, المدونة الفلسفية9053/: http://www.enashir.com/blogs/tarik .

(23) راجع المقال السابق في موقع المدونة الفلسفية.

(24) عبد الرحمن الشهري في موقع أهل التفسير: www. tafsir.org/vb/showthreas .dhp?th/eadid=243

(25) أنظر على سبيل المثال ما كتب الدكتور مسعود صحراوي عن "المنهج السياقي" ودوره في "فهم النص" و"تحديد دلالات الألفاظ' وذكر الرازي كأحد أعلام هذا المنهج بموقع الشهاب www.chihab.net/modules.php?name=News :75k - 389=sid&article=file& وكذا كتابه القيم: التداولية عند العلماء العرب, دار الطليعة للطباعة والنشر، ببيروت/لبنان، ط1 2005. وفيه بحوث قيمة عن تقاطع الرازي في تفسيره مع المبحث التداولي.